

جماليات الصمت ودلالاته في الخطاب الصوفي الجزائري
 "ديوان عفيف الدين التلمساني (610هـ-690هـ/1213م-1291م) أنموذجاً"

The aesthetics of silence and its connotations in the Algerian Sufi discourse
 "Diwan Afif al-Din al-Tilmisani (610 AH-690 AH / 1213 AD-1291 AD) as a
 model"

ط.د محمد فوزيل

Foudil.mohammed@univ-medea.dz

جامعة يحيى فارس بالمدينة - الجزائر

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء الخطاب الشعري الصوفي الجزائري، وبحث جماليات الصمت ودلالاتها الكامنة دخل التصوص الشعري، باعتماد المنهج الوصفي التحليلي، من أجل معرفة منابع الصمت ودرجاته، والمعاني التي يقصد الشعراء الصوقية في خطابات الشعري، إذا تم اعتماد ديوان الشاعر الصوفي عفيف الدين التلمساني أنموذجاً، والذي يحتوي على جماليات ودلالات للصمت أكسبته قيمة الفنية مرموقة مميزة سواء في المجال الصوفي . أو في المجال الأدبي.

الكلمات المفتاحية: جماليات ، الصمت، الشعر الصوفي ، دلالات ، ديوان التلمساني.

Abstract:

This study seeks to shed light on the Algerian Sufi poetic discourse, and discuss the aesthetics of silence and its latent connotations that entered the poetic texts, by adopting the descriptive-analytical approach, in order to know the sources and degrees of silence, and the meanings that Sufi poets intended in the poetic discourses, if the two Al-Shafi'in Al-A'fi'i Al-A'fi were adopted. A model", which contains the aesthetics and connotations of silence, which earned it a distinguished and distinguished artistic value, whether in the mystical field - or in the literary field. Abstract, Abstract, Abstract, Abstract,

Keywords: Aesthetics, silence, Sufi poetry, semantics, Diwan al-Talmisani.

1. مقدمة:

إنّ المرء مجبُولٌ على النّطق، وبه يفصح عن مراداته، ويعبر عن أفكاره ورغباته المكبوتة، بيدّ أنّه يجد نفسه مدفوعاً لصمت، تحت وطأة الظروف الخارجيّة والأحوال النفسيّة، لا يقدر على تخطيها ولا تجاوزها، بل يستكين لتأثيراتها، ويحاول جهده إلى التّفاعل معها سلباً، أو إيجاباً، فتراه صامتاً، يجتهد في التّكيف بما توفر لديه من آليات، فتأتي ردوده متباينة بألوان من الانفعالات، تطبعها فترات متقطعة من الصّمت، المحمّلة لدلالات مختلفة، تجعل النّاتج عنها والمضاف إلى لحظات الكلام ذا قيمة معنويّة وبيانيّة، مما ذلك الصّمت صبغة جمالية، لها خصوصياتها المتميزة في الخطابات البشريّة بوجه عام، والخطابات الأدبيّة الإبداعية بوجه أخص سواء أكانت نثريّة، أم شعريّة. والخطاب الصّوفيّ الشعريّ واحد من تلك الخطابات الشعريّة التي تحفل باللّحظات بل فترات الصّمت، ينتجها الشّاعر الصّوفيّ في نصوصه الشعريّة، ويشير إليها إشارة مقصودة، أو يقف عليها المتلقي أثناء قراءته للخطاب الشعريّ المنتج، مما يجعل الإشكالية ملحة، يكمن صياغتها في التّساؤلات التالية: من مفهوم ظاهرة الصّمت في الخطاب الأدبيّ؟ وما دلالاته في الخطاب الصّوفيّ؟ وكيف وظّفه الشّعراء الصّوفيّة في قصائدهم؟ وللإجابة عن هذه التّساؤلات تمّ اختيار الديوان الشعريّ لعفيف الدّين التّلمسانيّ، باعتقاد المنهج الوصفيّ التحليليّ، للكشف عن جماليات ودلالات الصّمت عند أهل التّصوف وقيّمته في خطاباتهم الشعريّة.

2. مفاهيم ومصطلحات أساسيّة:

التّصوف: هو امتثال الأمر واجتناب التّهيّ قبيّ الظّاهر و الباطن، من حيث يرضى لا من حيث ترضى.¹
الحال: هو عبارة عن أمر يرد من حضرة الحق بصورة قهريّة أو جماليّة، يكيّف العبد صورة ما هو منطبق عليه.²
الحضرة: هي الاجتماع الذي يلتقى فيه الشّيخ بمريديه، إلا أنّ الحضرّات ليست على مستوى واحد، فهناك أسبوعيّة أو يوميّة للمريدين الذين يرغبون في العلم والدّرس، فتقرأ وتناقش بعض كتب الفقه والتّفسير، وهناك حضرة أخرى للذكر والسماع.³
الخضوع: هو انكسار في النفس وسكون في قواها الطبيعيّة استسلاماً لحكم الخالق واتضاعاً لنظره، وخشية لعظمته.⁴

¹ - أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصّوفيّة، دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع (عبد غريب)، القاهرة- مصر، 2000م، ص50.

² - المرجع نفسه، ص54.

³ - حسن الشّرقاوي، معجم ألفاظ الصّوفيّة، مؤسسة مختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة- مصر، ط02، 1992م، ص124.

⁴ - عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفيّة، تحقيق وتقديم وتعليق عبد العال شاهين، دار المنار للطبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة- مصر، ط01، 1413هـ - 1992م، ص212.

الخشية: تألم القلب بسبب توقّع مكروه في المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشيّة الأنبياء من هذا القبيل.⁵

الصّمت: سكوت وفي وقته صفة من صفات الرجال، كما أنّ النّطق في موضعه من أشرف الخصال.⁶

3. صفات التّصوف وبعض آداب الصّوفيّة والمريدين في الحضرة :

1.3. صفات التّصوف:

من أهم صفات التّصوف⁷، ما يلي :

- الإخلاص و طهارة القلب، قال تعالى: [مخلصين له الدّين حنفاء] الآية 05 سورة البينة.
- الخشية من الله - قال تعالى: [إنما يخشى الله من عباده العلماء] الآية 28 سورة فاطر.
- الخشوع لله - قال الله تعالى: [خاشعين لله] الآية 199 سورة آل عمران .
- التواضع للمخلوقات، قال تعالى: [واخفض جناحك للمؤمنين] الآية 88 سورة الحجر.
- حسن الخلق - قال تعالى: [فبما رحمة من الله لنت لهم] الآية 159 سورة آل عمران.
- الزهد في الحياة ، قال تعالى: [وقال الذين أوتوا العلم و يلکم ثواب الله]. الآية 80 سورة القصص⁸.

2.3. بعض آداب الصّوفيّة والمريدين في الحضرة :

لأهل التّصوف شيوخاً ومريدين جملة من الآداب، ينبغي انطباعها في سلوكياتهم وأخلاقهم العامّة والخاصّة، ومن أهم تلك الآداب: "ترك الهذيان وقبيل الكلام- وهجران الأوغاد والسّفهاء- الحلم والسّماحة وقت الغضب- ملزمة مجالسة المعرفة بين الأبرار و الأخيار - ترك ما لا يعني والعمل بما يعني- ولين الجانب وصلة الرّحم وإفشاء السّلام- إتخاف النّاس ومعاونتهم في الشّدائد محبة لله- الصّفح وقبول العذر والتّذلل في العبادة خوفاً من الله وطمعاً في رضاه- التّندم والتّحذير والتّوقير والتّبصر- والتّكرم والصّمت والقناعة... تلك هي أهم آداب التّصوف فمن تخلّق بها صار صوفياً صادقاً وثبت إيمانه وتمحص قلبه لشهود حضرة ربه".⁹

⁵ -علي بن محمّد السيّد الشّريف الجرجانيّ، معجم التعريفات، تحقيق: محمّد صديق المنشاويّ، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة - مصر، ط2، 2012م، ص 87، 86.

⁶ -حسن الشّرقاوي، معجم ألفاظ الصّوفيّة، مرجع سابق، ص 191.

⁷ -محمّد عد المنعم خفاجي، الأدب في التّراث الصّوّفيّ، دار غريب للطّباعة، القاهرة - مصر، ص 18.

⁸ -المرجع نفسه، ص 19.

⁹ -المرجع نفسه، ص 17، 18.

وبناء على الكثير من الأحاديث النبوية الدالة على معاني الصمت، و المبينة لفضله، وعظيم آثاره في حياة الفرد المسلم، سعى شيوخ التصوف وأتباعهم إلى التحلي بالصمت، ومن الأحاديث التي استندوا إليها، وسعوا إلى تطبيقها، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"، رواه البخاري ومسلم.¹⁰

فالصمت من آداب الصوفية وأخلاقهم فلا يتكلمون إلا لسبب، ولا يسكتون إلا لحكمة، و فرق بين عبد يسكت تحاوياً وكذباً و غيبةً، وعبد سكت لاستيلاء سلطان هيبة الله عليه، وخوفه أن يقع في معصية. وربما كان السكوت و الصمت للمريد الصادق سبب كشف أو فتح أو فيض إلهي، فيعجز عن التعبير والكلام، فيخرس لسانه فلا ينطق، ولا كلام و لا حس.¹¹

4. مكانة الصمت ومنابعه في أحوال الرجل الصوفي الملتزم:

للصمت في عرف الصوفية وآدابهم شيوخاً ومريدين مكانة بليغة، "فالصمت سلامة، وهو الأصل، وعليه ندامة، إذا ورد عنه الزجر، فالواجب أن يعتبر فيه الشرع، والأمر والنهي، والسكوت في وقته صفة الرجل، كما أنّ النطق في موضعه من أشرف الخصال.... سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، والصمت من آداب الحضرة."¹²

إنّ الرجل الصوفي الملتزم هو الذي يتخلق بتلك الآداب الأنفة الذكر، ويحاول جاهداً الالتزام بها مدى الحياة، خوفاً من الله، وخشية له، وتعظيماً وتوقيراً لحضرتة، حتى تحصل له المنافع في حياته، إذ يصف حال السالك إلى مرضاة الله عبد الواعد بن عاشر في قوله :

يَعُضُّ عَيْنَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ ** يَكْفُ سَمْعُهُ عَنِ الْمَأْتِمِ
كَعَيْبَةِ نَمِيمَةٍ زُورٍ كَذِبٍ ** لِسَانُهُ أُخْرَى يَتْرَكَ مَا جُلِبَ¹³

فالصوفي الملتزم هو الذي حفظ جوارحه من اقتراف المحرمات، بحيث يغض بصره عن النظر المحرم، ويكف سمعه عن سماع الغيبة والتهمية، ويحفظ لسانه من قول الكذب وشهادة الزور، كي يكسب محبة الله، وينال رضاه،

¹⁰ - أبي زكريا يحيى بن شر النوي، متن الأربعين النووية، دار المجدد للنشر والتوزيع، سطيف - الجزائر، ص 16.

¹¹ - حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مرجع سابق، ص ص 191، 192.

¹² - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة - دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، 1409هـ - 1989م، ص 226.

¹³ - عبد الواحد بن عاشر، متن ابن عاشر المسمى بالمرشد المعين على الصوري من علوم الدين، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2021م، ص ص 23، 24.

ويظفر بالفوز بجناته، والسّلامة من نيرانه وعقابه ، عملاً بمضامين حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي سأل فيه الرّسول صلى الله عليه و سلم عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النّار ، فأجاب عن ذلك ، وختم توجيهه ، بقوله عليه الصّلاة والسّلام: «...ألا أخبرك بملاك ذلك كلّ؟ فقلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال: كفّ ، عنك هذا قلت: يا نبيّ الله وإنا لمؤخذون بما نتكلمك به؟ فقال: ثكلتك أمك وهل يكب النّاس على وجوههم -أو قال على مناخرهم- إلّا حصائد ألسنتهم؟!». رواه التّرمذي¹⁴.

وللصّمت عند الصّوفيّة منابع "كما وردت في أقوالهم، يمكن إرجاعها إلى أربع: صمت أدب-صمت بسبب-صمت عبادة-صمت رياضة.

- صمت أدب : فالصّمت من آداب الصّوفيّة وأخلاقهم.

- صمت بسبب: إذ ربما كان صمت المريد سببه كشف أو فيض إلهي أخرس لسانه فلا نطق و لا كلام.

- صمت عبادة: و هو صمت الإنسان عندما يأخذ قوم في الغيبة والنّيمة.

- صمت رياضة: وهو قول بشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام فأصمت وإذا أعجبك الصّمت فتكلم.¹⁵

من هذا المنابع طفق الصّوفيّة يصنفون الصّمت في درجات تميز صمت عن صمت آخر، دالة على جوهر ذلك الصّمت، و"أما درجات الصّمت، فهي: صمت اللسان، وصمت القلب، وصمت السرّ".¹⁶ وعليه فإنّ "الصّمت عند المتصوفة نوعان: صمت يتفق فيه الخاصة، والعامة، وهو كفّ اللسان عن مذموم القول، أمّا الصّمت الثّاني فهو فقد القدرة على التعبير، لهيئة المعنى، أو المقام، أو حين التّجلي من جهة، والاعتقاد به بوصفه اللّغة الأكثر قدرة على الشّرح ، مما يمكن للكلام شرحه وعمّا يعجز عنه وهذا هو الصّمت الذي يركز عليه المتصوفة، بوصفه ركناً من أركان التّصوف".¹⁷

لقد اعتبر عدّ المتصوفة الصّمت وسيلة للتّخاطب، وهو قادر على القيام بالإغراض، وقضاء المآرب، والرّغبات والحاجيات، يمكنها التّبليغ بالنيابة عنهم، يقول شهاب الدّين بن أميرك السّهروردي ما يلي :

تَكَلَّمْ مِنَّا فِي الْوُجُودِ عِيُونُنَا *** فَنَحْنُ سُكُوتٌ وَالْهَوَى يَتَكَلَّمُ¹⁸

¹⁴ - أبي زكريا يحيى بن شر النووي، متن الأربعين التّوويّة ، مرجع سابق ، ص32.

¹⁵ - سعاد الحكيم، المعجم الصّوفي، دار ندرة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط01، 1401 هـ -1980م، ص700.

¹⁶ -المرجع نفسه ، الصّفحة نفسها.

¹⁷ - أمل عبد الله الرّاشد، خطاب الصّمت في التواصل اللغويّ دلالاته ووظائفه(ملخص رسالة دكتوراه)، مجلة الآداب، الرياض - المملكة العربيّة السّعودية، مج25، ع3، 2013م-1434هـ، ص232.

¹⁸ - ليلي مقدسي، لوامع الصّوفيّة، دار التّهج ، حلب -سوريا، ط01، 2011م-1432هـ ، ص102.

وانطلاقاً من تلك المنابع، واستناداً لهذه الدرجات فكان العناية بالأحوال الصّمت، بأمر به الشيوخ ومريدتهم وأتباعهم، ونكروا على كلّ من خالف سلوكهم فيه، بل نعتوه بنعوت شديدة الوقع في النفوس، كالأخرق والأحمق، والأبله وغيرها من الأوصاف، كما جعل سمة من سمات المتصوف المؤدب الصّدق الخلق، ولذا جاءت آثارهم ورسائلهم، ووصاياهم ترشد إلى التّزّين بالصّمت، والتّأدب به، كي يغنم صاحبه، وذلك ما دلت عليه مؤلفاتهم من الثّريّة والشّعريّة، والتي اختير منها ديوان الشّيخ عفيف الدّين التّلمسانيّ، فهو من أكبر شعراء التّصوف باللّغة العربيّة، " وشعره الجميل يذكر الصّوفيّة أبياتاً منه، وقطعاً من كتبهم".¹⁹

4. نبذة تعريفية بالشّيخ عفيف الدّين التّلمسانيّ (610هـ-690هـ/1213م-1291م):

1.4. من هو عفيف الدّين التّلمسانيّ:

هو: أبو الربيع عفيف الدّين، سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن ياسين العابديّ الكوميّ التّلمسانيّ، والمعروف بـ ((عفيف الدّين التّلمسانيّ)).²⁰

يُعدّ من الشعراء الأدباء، من قبيلة كومة، أو كومية، وهي قبيلة صغيرة منازلها بساحل البحر من أعمال تلمسان، رحل إلى الشرق فدخل القاهرة ونزل بخانقاه سعد السّعداء، وتنقل في بلاد الرّوم وبني فيها أربعين خلوة، ثم سكن دمشق فعين مباشراً استيفاء الخزّانة، وكان له مقام عند سلطانه. ومعروف بالجلالة والإكرام بين النّاس.²¹

كان عفيف الدّين متصوّفاً، يتكلم على اصطلاح ((القوم))، يتبع طريقه ابن العربي في أقواله وأفعاله، واتّهمه فريق برقة الدين و الميل إلى مذهب النّصيريّة، توفي بدمشق ودفن بمقابر الصّوفية.²²

2.4 مؤلفاته:

رحل الشّيخ عفيف الدّين التّلمسانيّ وترك وراءه كتباً قيمة، في علوم كثيرة، كانت في النثر والشعر، قال الذهبي: ((وأما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغة لا من حيث الاتحاد)). ويقال الجزري في تاريخه: ((وله في كلّ علم تصنيف)).²³

19 - المرجع نفسه، ص 85.

20 - عفيف الدّين سليمان بن علي التّلمسانيّ، ديوان العارف بالله الشّيخ عفيف الدين سليمان بن علي التّلمسانيّ (ت 690 هـ). تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، كتاب ناشرون، بيروت - لبنان، ط 01، 1434 هـ - 2013م، ص 8.

21 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، دار الوعي، روية - الجزائر، ط 02، 2017م - 1438 هـ، ص 311.

22 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

23 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

- شرح فصوص الحكم ،لابن عربي .
- شرح المواقف للتفري .
- شرح أسماء الله الحسنى .
- شرح القصيدة العينية لابن سينا، وسماء: " الكشف و البيان في معرفة الإنسان.
- شرح منازل السائرين إلى الحق المبين للانصاري الهروي.
- شرح القصيدة النفسية لابن سينا.
- له رسالة في علم العروض وديوان من الشعر في الغزل الصوفي والوصف تغلب عليه السهولة والعدوبة.
- شرح قصيدة التائية الكبرى لسلطان العاشقين :عمر بن الفارض «مخطوط».
- ديوان شعر، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، نود بحثه ودرسته.

3.4 . التعريف بديوانه الشعري وأغراضه :

هو ديوان شعري صوفي مشهور، و هو ديوان مرتباً على الحروف الهجائية....تحدث في شعره عن الحسن المبدع، والجمال الأبدي، والحقيقة الأزلية، واتخذ في وصف الخمر رموزاً، وسكر بها سكرًا صوفيًا خاصاً، كما كان من أغراضه النسيب والغزل، وتناول الصهباء والسكر، والخمار والحانة، والطبيعة، ومكوناتها، وهو يعرض لنا بأسلوب في الرمز الصوفي حقائق التصوف وعقائده ومواجهه.²⁴

5. نماذج من الصمت ودلالاته في الديوان التلمساني:

1.5. دلالة الإقرار بأن الله الظاهر والباطن العالم بالسرائر:

يقرّ الشيخ عفيف الدين التلمساني بقدرة الله وعلمه بالظواهر والباطن، و في ذلك اعتراف بأوصاف الله الزكية ، وأسماء الحسنى ، ومنها " العليم ، الظاهر، والباطن، والشاهد، والشهيد..."، إذا لا تخفى على علمه سرائر النفوس، و بواطن القلوب ، ويشهد على ما فيها عظم أو دق شأنه ، يقول في هذا الصدد :

شَهِدْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ ** كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءٍ
وَنَحْنُ فِيكَ شَهِدْنَا بَعْدَ كَثَرَتِنَا ** عَيْنًا بِهَا اتَّخَذَ الْمُرْتَبِيُّ وَالرَّائِي
فَأَوَّلُ أَنْتَ مِنْ قَبْلِ الظُّهُورِ لَنَا ** وَآخِرُ أَنْتَ عِنْدَ النَّظَرِ الرَّائِي
وَبَاطِنٌ فِي شُهُودِ الْعَيْنِ وَاحِدَةٌ ** وَظَاهِرٌ لِامْتِيَازَاتِ وَالْآءِ
أَنْتَ الْمَلْقُونُ سَرِي مَا أَفْوَهَ بِهِ ** وَأَنْتَ نُطْقِي وَالمَصْغِي لِنجَوَائِي²⁵

24- ليلي مقدسي، لوامع الصّوفيّة، مرجع سابق، ص63.

25 - عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني، ديوان العارف بالله الشيخ عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت690هـ)، تحقيق عصام إبراهيم، مرجع سابق، ص19.

فالأبيات الخمسة يظهر حال الشاعر عفيف الدين التلمساني وهو في حضرة الله سبحانه وتعالى، إذ يحضر وهو موقن بأن الله يعلم ما في نفسه، و يعلم ظواهره، ومطلع على سرائره، و أنّ ما يقوله فالله أقدره عليه، وأنّ ما يخفيه، ولا ينطق به، فالله وحده يعلمه عنه، بما في ذلك نجواه التي تدور بخلده. فالله لا يحجب عنه شيء، ولا يعجزه شيء، إذا تدرج في درجات كلها من صمت اللسان، فصمت القلب، انتهاء بصمت السر.

2.5. دلالة إضمار الغدر والتعامل بالتفاق :

بيان التلمساني حال عاذله من الناس، وتعامله معه، إذ يكشف بعض تصرفاته الدالة على نفاقهم أثناء التقائه به، فهو معه يتلطف له، لكنّه يخفي في قلبه دسائس وغدراً ضده، حيث يقول فاضحاً لهذا السلوك:

وعاذلي عاد لي بلطفٍ ** تكاذُ منه الصبا تُحِبُّ
أضمرَ غَدراً فعاد غُدراً ** إذا رُفعت للمحب حُجُبٌ²⁶

فصمت عاذله عند الالتقاء، هو صمت المقهور العاجز عن المجارة، وانتفاء القدرة على المجابهة، والمواجهة، وعلامة على ضعف الشخصية، إذ يتصنع المحبة، ويتظاهر باللطف واللين، مخفياً حقه الدفين، مضمراً غدره في قلبه، لا يستطيع النطق بشيء يسبب له الحرج، لكن إذا كشفت الشيخ الحجب، عاد العاذل إليه معتذراً.

3.5. دلالة الخضوع والإقرار بالعجز والضعف بين يد الله:

لما تعرّف الشيخ التلمساني على عالم محبة الله، يَمّم وجهه نحوه، فتعلّق قلبه بمعرفة الله، فأسير من غير، قيود وسقَم من غير مرض بذلك الهوى من غير أن يجد طبيب، يقول واصفاً حاله وحال قلبه المتعلق:

بدا علّم للحب يَمّمُ نحوه ** فلم أنقلب حتى احتسبت به قلبي
بلوث الهوى قبل الهوى فوجدته ** إساراً بلا فك سقاماً بلا طِبِّ
بروحي حبيب لا أصرّح باسمه ** وكلّ محبّ فهو يُكنى عن الحبِّ
براني هواه ظاهراً بعد باطنٍ ** فجسمي بلا رُوجي وقلبي بلا لب²⁷

إنّ وطأة الهوى على قلبه، وتعلق روحه بمحبة الله جعلته يصمت ولا يصرح باسم حبيبه وهو الله سبحانه وتعالى، مما يوحي بصفة الخضوع والاستسلام لله، والإقرار بالعجز والضعف في حضرة الله، وشدة الخشية من الله.

4.5. دلالة كتمان الحب والهوى خشية وغيرة على المحبوب:

إنّ شدة حبّ عفيف الدين التلمساني لله تعالى، وحال قلبه المتيم والمتعلق بخالقه، والمعتز بالآله عليه، جعلته يتكتم عن حبه، ليظلّ يعاني في صمت، مؤكداً مرة أخرى على أنّه لا يجراً على تسمية محبوبه، خشية من الله، ورهبة منه، يقول في هذه المعاني :

26 - عفيف الدين التلمساني، ديوان عفيف الدين التلمساني، دراسة و تحقيق يوسف زيدان، ج01، دار المشرق، ط2008، ص100.

27 - المرجع، ص124.

أُحِبُّ حَبِيبًا لَا أُسَمِّيهِ هَيْبَةً ** وَكَتِمُ الْهَوَى لِلْقَلْبِ أَنْكَى وَ أَنْكَأُ
أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ هَوَايَ فَكَيْفَ لَا ** أَغَارُ عَلَيْهِ مِنْ سِوَايَ وَأَبْرَأُ²⁸

فهو لا يبوح بحبه، ويكتم هواه في قلبه المتعلق بحب الله، هيبه وإجلالاً لعظمة الله سبحانه، والذي تقدّس في عليائه، وخضعت لجبروته كلّ المخلوقات.

5.5. دلالة الطمع في لقاء الله بسبب الحب والخيرة من أوصاف الناس المحبّ:

بِحُبِّكَ هَلْ لِي مِنْ لِقَائِكَ مَطْمَعٌ ** فَإِنِّي مِنْ كُرْبٍ عَلَيْكَ إِلَى كُرْبٍ
بِكُلِّ طَرِيقٍ لِي إِلَيْكَ مَنِيَّةٌ ** كَأَنِّي مَعَ الْآيَاتِ بَعْدَكَ فِي حَرْبٍ
بَكَيْتُ فَقَالُوا أَنْتَ بِالْحُبِّ بَائِحٌ ** صَمْتُتُ فَقَالُوا أَنْتَ خَلَوْتَ مِنَ الْحُبِّ²⁹

لقد زادت محبة التلمسانيّ لله حتى طمع في لقاءه و الأنس به، وهو يتلقى الكروب و الابتلاءات في سبيل محبته لله في طريق، وفي كلّ يوم، ومن شدة التعلق والطمع في لقاء الله، يعزي نفسه بالبكاء، فيعيب الناس عنه حاله، و يتندرون به، قائلين له: "أنت بالحب بائح"، أيّ أنك : تبوح بمحبتك الله للناس، فيصمت عن البكاء، فيعيبون عليه صمته، قائلين له: "أنت خلوت من الحب"، أيّ إنّ قلبك خالٍ من محبة الله، فيختار من أوصافهم له، مدركاً إن إرضاءهم غاية لن تدرك.

5.5. دلالة الرجاء وزيادة الآمال في رؤية الله من أجل السكينة والتخلص من الدموع:

إنّ شدة قلب الشيخ غفيف التلمسانيّ دفعته للترجي، وتعاضم آماله طمعاً فأبى يرى وجهه وجه الله تعالى، من أجل أن يسكون قلبه ويهدأ، ويصمت عن الحفقان، ويتخلص من البكاء، وترتاح عيونه من دموعها السائحة. وهذا يقوله في البيتين التاليين :

عَسَى لَيْلٌ أُمَالِي بِوَجْهِكَ يُصْبِحُ ** وَيُسَعِّفُنِي الدَّهْرُ الْبَخِيلُ وَ يَسْمَحُ
وَيَسْكُنُ قَلْبٌ قَدْ تَمَادَى حُفُوهُ ** وَيَخْلُصُ طَرْفٌ رَاحَ بِالدَّمْعِ يَسِيحُ³⁰

6.5. دلالة قهره الهوى وسيطرته على النفس وعدم البوح به والاكتفاء بالخواطر وحديثها:

لقد تمكن الهوى الرّوحي من التلمسانيّ، وسيطر عليه كلية حتى أرغمه على الصّمت و الأذعان ، فجرت دموعه من محاجره، و سرى الهوى مع أنفاسه شهيقاً وزفيراً ، فلم يقدر على القول، و التعبير عن مشاعره لمن حوله، واكتفى بحديث الخواطر محاوراً مهجته و سرائره، حيث يقول :

وَقَفْتُ الْهَوَى بَيْنَ الْعَقِيقِ وَحَائِرِي *** فَجَرَى عَقِيقُ الدَّمْعِ فَوْقَ مَحَاكِيرِي

28 -المرجع نفسه، ص70.

29 -المرجع نفسه ، ص ص 124،125.

30 - المرجع نفسه ، ص 158.

وَسَرَى بِأَنْفَاسِ الرُّبُوعِ نَسِيمُهُ ** سَكْرِي بِنَقْلِ حَدِيثِهِ الْمُتَوَاتِرِ
مِسْكِيَّةُ النَّفَحَاتِ هَلْهَلْ بَرْدُهَا ** عَبَثُ النَّسِيمِ بِكُلِّ غِصْنٍ نَاضِرٍ
يَا نَازِلِينَ وَلَا أَقُولُ بِذِي الْغَضَا ** لَكِنَّ أَقُولُ بِمُهْجَتِي وَسَرَائِرِي³¹

7.5. دلالة الصمت الجبلي الغريزي :

إنّ عفيف الدين التلمساني كان مرهف الحسّ، ذو مشاعر فياضة، ذو عاطفة حساسة بما حوله في الطبيعة من أشجار وحيوانات وطيور وحمائم، وأتجار ووديان وشموس وأقمار، والتي يملأ الفضاء الإرجاء، فها هو ينقل في ديوانه حال فرسه الصامتة صمتاً جبلياً غريزياً، كونها من العجاوات غير الناطقة، حيث تتألم وتتأذى وتتضرر، لكنّها لا تقدر على النطق، كي تدفع الأذى عن نفسها، أو إساءة من غدر بها، إذ يقول في ذلك مخبراً عنها مقامها، معرباً عن مقالها، واصفاً حالها :

وَمَوْعِدُ وَصَلٍ فِي الْحَقِيقَةِ نَاجِزٌ ** رَقِيقُ الْحَوَاشِي نُزْهَةٌ لِلنَّوَاهِرِ
سَلَوْتُ بِهِ عَنْ كُلِّ عَيْنٍ رَقِيقَةٍ ** سَوَى الزَّهْرِ يَزْنُو عَنْ عُيُونِ غَوَازِرِ
وَكَانَتْ عَذَارُ الْقَضْبِ وَهِيَ غَرَائِزُ ** تُثِيرُ الْهَوَى مِنْ كَامِنَاتِ الْغَرَائِزِ
تُثِيرُ إِلَيْنَا بِاتِّصَافٍ كَأَنَّهَا ** وَلَا بُدَّ تُخْفِي النُّطْقَ عَنْ لُغْزٍ لَاغِرِ³²

لقد صمّنت فرسه صمتاً طبيعياً، وهي تقطع معه الرّبي والسهول والمسافات، شوقاً للظفر بنفحات التجلي، و اكتفت بالإشارات الزامزمت، والعيون الغامزة، كي تترجم ما تحس بها من ألم و تشعر به من أذى تلك الغرائز المؤذية لجسمها، و المؤثرة على نفسها.

8.5. دلالة تمام التجلي واستفاء المعاني:

أبان التلمساني عن لأحواله وهو في ذكره لله، ولا بأوصافه وهو يتنسم من نفحات الحضرة الربانية، ولا بأشواقه التواقة إلى لقاء الله نتيجة لذلك الحب الذي ملك عقله و قلبه، وحبس أنفاسه، وأصابه بعلّة الهوى الذي لا طبّ له، حيث يحضر مستشعراً بجلال الله وعظمته، ملتزماً الصمت هيبه من الله، وخشية، وتوقيراً لقدسية الله، لا يقدر على النطق والحديث والقول وهو في جنبات الله، ولم يغفل حتى صمت فرسه الله ترافقه، يسير في أرض الله لا يرى آثار صنع الله في كونه و موجوداته.

لم يكتف بهذا أحد من الأخبار والأوصاف، بل راح يؤكد على أنّ الصمت في حد ذاته خطاب مقصود لذاته، فهو أبلغ من الأمثلة والأصوات والحروف، فإذا حصل الفهم للحال، وأدرك المراد في المقام، فذلك هو الخطاب الأوفى وعين التجلي، وهو الحق ذاته، وهذا مايشير إليه الجنيد في قوله: «الشاهد الحق في ضميرك

³¹ - عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني، ديوان العارف بالله الشيخ عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت 690هـ)، تحقيق عصام إبراهيم،

وأسراك»³³ ، لا ما يحمله النطق في ألفاظه، وثنايا عبارات، والمضبوط بالقواعد النحوية والصيغ الصرفية، والتراكيب البلاغية، والصّور البيانية، وما تعارف على أهل اللغة، يقول مؤكداً على هذا:

إِذَا وَافَى خِطَابُكَ عَنْ تَجَلٍّ ** بِلَا مِثْلٍ وَلَا صَوْتٍ وَ حَرْفٍ
فَذَاكَ الْحَقُّ لَا مَا جَاءَ نُطْقاً ** عَلَى قَانُونِ عَادَاتٍ وَ عُرْفٍ
جَمِيعُ خِطَابِ أَهْلِ اللَّهِ مَعْنَى ** بِلَا لَفْظٍ وَ كَشْفٍ دُونَ كَشْفٍ³⁴

حيث يرى أن جميع أهل الله وهم المتصوفة، خطاباتهم صامتة حملة لمعانٍ، وهي خطابات غير منطوقة، يميزها الصمت، لا ألفاظ لها، ولا حروف، لكنها تكشف للأصحاب المقامات معان عميقة، يعزب عن فهمها العامة من الناس.

6- أثر جماليات الصمت في ديوان الصوفي عفيف الدين وموضوعاته :

القارئ لديوان الشاعر الصوفي عفيف الدين التلمساني، يجد نفسه مشدوداً بحسن تناغم تلك الدلالات السابقة، وغيرها من الدلالات المكونة لأجزاء الديوان، حيث يلقي انسجام المعاني وتناسقها، في تراكيب نحوية، وبلاغية، وعروضية وفنية إبداعية منسوجة في أسلوب مرونق، تُسَلِّمُ ألفاظه المختارة إلى معانيها المقصودة، فكل لفظ من الألفاظ الدالة على الصمت، أو الموحية له مثل: ((كتم الهوى / الصمت / سكوت / لست بناطق / لا أقول / سكوت / مسكنة / سكوت... الخ))، حيث يمكن استبدالها بمرادفاتهما، لأنها وحدها المقصودة في المعنى، والقادرة على حمل كل دلالاته عند التلقي، والقراءة والشرح والتأويل .

7. خاتمة:

وصفوة القول مما تقدم في هذا الورقة البحثية، والتي حاولت دراسة جماليات الصمت ودلالاته في الخطاب الشعري الصوفي الجزائري، متخذة ديوان الشاعر الصوفي الكبير عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني أنموذجاً، يمكننا استخلاص النقاط التالية:

- التصوف هو طريقة من طرق التعبد لله، يلتزم في العبد بالقيام بالواجبات، و يجتنب فيه المنهيات.
- للتصوف آداب يجب توافره في المنتسبين إليه شيوخ وأتباعاً.

33 - ينظر في الهامش : أبي بكر محي الدين المرسى، ديوان ابن عربي، شرحه أحمد حسن بسبح ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1، 01، 1416هـ-1996م، ص69.

34 - عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني، ديوان العارف بالله الشيخ عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت690هـ) تحقيق عصام إبراهيم، المرجع السابق، ص65.

- من أدب التصوف: الالتزام بشرع الله، المحافظة على الأذكار والأوراد، الخشية والرهبة من الله، حفظ الجوارح عن اقتراف المحرمات، الزهد، الورع، التواضع، التفكير في خلق الله، تعظيم الله، وتوقيره.... الخ
- الصمت في عرف المتصوفة غاية في حد ذاته، وليس وسيلة يتوصل بها إلى المراتب والمقاصد.
- للصمت عند المتصوفة أربعة منابع : صمت أدب-صمت بسبب- صمت عبادة-صمت رياضة، كما أن له ثلاث درجات : صمت اللسان، و صمت القلب، وصمت السر.
- للصمت عند المتصوفة وخطاباتهم ، نثرة كانت أو شعرية، معان كثيرة أهمها: الوفاق، التعظيم ، التواضع، التذلل، الاعتراف بالعجز، والضعف، العبودية لله.
- ديوان الشاعر الصوفي عفيف الدين التلمساني يحمل في ثناياه قصائده دلالات كثيرة جداً، يمكن الوقوف عليها عند القراءة المتأنية للأبيات ، نذكر منها الدلالات التالية:
- دلالة الإقرار بأن الله الظاهر والباطن عالم بالسرائر.
- دلالة إضمار العذر والتعامل بالتفاف.
- دلالة الخضوع والإقرار بالعجز و الضعف بين يد الله.
- دلالة كتمان الحب و الهوى خشية وغيرة على المحبوب.
- دلالة الطمع في لقاء الله بسبب الحب والخيرة من أوصاف الناس للمحب.
- دلالة قهر الهوى وسيطرته على النفس وعدم البوح به والاكتفاء بالخواطر وحديثها.
- دلالة الصمت الجبلي الغريزي.
- دلالة تمام التجلي واستفاء المعاني.
- لجماليات الصمت ودلالاته في ديوان عفيف الدين التلمساني أثر عظيم، يتمثل في الاتساق والانسجام، وبلاغة الدلالة، وتراص المعاني، ووضوح المقاصد، مما يجعله ديواناً خالداً، حري أن تعاد قراءته، قراءة إثر أخرى، لكشف المزيد من خصائص الديوان ، والخصوصيات الذاتية لمؤلفه.

5. قائمة مصادر ومراجع البحث:

- القراءان الكريم.
- الكتب:
- 1. أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، 1409هـ - 1989م.
- 2. أبي بكر محي الدين المرسى، ديوان ابن عربي، شرحه أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1416، 01هـ - 1996م.
- 3. أبي زكريا يحيى بن شر النووي، متن الأربعين النووية، دار المجدد للنشر والتوزيع، سطيف - الجزائر.

4. أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبد غريب)، القاهرة- مصر، 2000م.
 5. حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ط2، 1992م.
 6. سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دار ندره للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1401 هـ - 1980م.
 7. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، دار الوعي، روية - الجزائر، ط2، 2017م - 1438 هـ .
 8. عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق و تقديم وتعليق عبد العال شاهين، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ط1، 1413 هـ - 1992م.
 9. عبد الواحد بن عاشر، متن ابن عاشر المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2021م.
 10. عفيف الدين التلمساني، ديوان عفيف الدين التلمساني، دراسة وتحقيق يوسف زيدان، ج1، دار المشرق، ط1، 2008م.
 11. عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني، ديوان العارف بالله الشيخ عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت 690 هـ)، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، كتاب ناشرون، بيروت - لبنان، ط1، 1434 هـ - 2013م.
 12. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة - مصر، ط2، 2012م.
 13. ليلي مقدسي، لواع الصوفية، دار النهج، حلب - سوريا، ط1، 2011م - 1432 هـ .
 14. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة - مصر.
- المقالات العلمية :
15. أمل عبد الله الراشد، خطاب الصمت في التواصل اللغوي دلالاته ووظائفه (ملخص رسالة دكتوراه)، مجلة الآداب، الرياض - المملكة العربية السعودية، مج25، ع3، 2013م - 1434 هـ.